نظرية المساءلة أو نظرية الحجاج الخطابي:

نظرية المساءلة هي نظريةُ فيلسوفٍ معاصرٍ يُدعى بـــ (**ميشال مايير Michel Meyer**)، وهو مؤسّس المركز الأوروبي لدراسة الحجاج ورئيسه، ومديرٌ للمجلة الدولية للفلسفة، وقد كانت قناعة مايير Meyer في تأسيس مشروعه المساءلاتي الاستشكالي منطلقةً من أنّ العقلانية الأوربية قد أفلست بقرينة إفرازاتها في موصوف النتائج: من عدميةٍ وتشيئٍ وحروبٍ وغيرها من الثمار التي جرَّعت أوروبا – والبشرية عامةً – الدمار والخواء ...، والوعي بهذه الوضعية حَدَا بمايير انتداب مشروعه الفلسفي البلاغي القائم على استعادة الفلسفة وظيفتها الجوهرية الأولى؛ والمتمثلة في متواليات السؤال والجواب أو (المساءلة) أو الاستشكال، وهو مشروع يتداخل فيه ما هو فلسفي بوصفه آليةً فكريةً مُنتجةً بما هو بلاغي بوصفه آليةً تواصلية جامعة لثلاثية (الإيتوس، والباتوس، واللوغوس)؛ والتي عرضها ميشيل في كتابه (Qu'est-ce que l' argumentation?) من خلال قوله: « Ethos, pathos, logos: les trois niveaux de la relation rhétorique»، وقد استثمر مايير في التطور العلمي الحديث في مجالي الأبحاث اللسانية والبلاغية التي بلغت مستويات عالية، وما زالت تتسع إلى حدّ الآن. والجدير ذكره في هذا الصدد أنّ مشروع مايير في المساءلة والاستشكال لم يَرُم « إحداث القطيعة في الفكر الأوروبي، ولكنه يتوخى تصحيح مسار هذا الفكر، بتطوير مبدأ الاستدلال فيه ... » وذلك أنّ العقلانية الأوروبية كانت قائمة على النمطية القضوية والأجوبة القبلية التي تتقولب في حدود المنطق فقط، فأراد مايير توجيه مسارها القالبي هذا إلى الوجهة المعتمدة على النموذج البلاغي القائم على التفكير في دائرة المحتمل لا القضوي الحتمي، والقائم على سعة المتوقّع لا على محدوديته في المقولات العقلية المنطقية فقط.

1. **مفهوم نظرية المساءلة:** هي نظرية تقوم على رسمِ موصوفِها (المساءلة)؛ أي على جدلية السؤال والجواب، وتسمى هذه النظرية أيضا بالاستشكال (La Problématologie)، والتي بشّر بها ميشال مايير في كتابه (De la Problématologie)، وهي نظرية تتّسم بدينامية التفكير المُنتِج للأسئلة والقادر على الاستشكال، في صيرورةٍ متناميةٍ تتجاوزُ الإرثَ الكلاسيكيَّ لتجعلَ من العقلانيةِ فاعليةً دائمةً للسؤالِ والاستشكالِ، كما يرسم مايير المسافة بين الأسئلة وأجوبتها؛ من حيث إنّ الأجوبة ليست قبلية جاهزة، وليست بتحصيل حاصل، بل هي اكتشافٌ متجدّدٌ من منطلقِ مخالفةِ الأسئلةِ للأجوبةِ، فالمساءلة هي فضاء الخلاف والتعدد، وقناة التواصل مع الآخر؛ فالسؤال يُنتج أكثر من إجابة، والإجابات في تعدّدها تترجم الخلافية وتؤكّد التواصلية مع الآخر، وتؤكّد الطابع الحواري المبدع لأنواع شتى من البدائل التي تضمن التنوّع غير القضوي وغير الناجز قبليا، كما كان العهد مع الاستنباط الشكلي في الإرث الكلاسيكي، ويلخّص ميشال مايير قيمة المساءلة في وصفها بأنها أساس اللغة ومصدرها الممثل في ثنائية الفرق بين السؤال والجواب، أو كما يسميه بـــ (الاختلاف الإشكالي La différence problématologique)، وفي ذلك يقول: « La dualité fondamentale du langage est la différence question – réponse, que j'ai appelée ailleurs différence problématologique, elle est à la source du langage..».

2 . **اللغة والاستشكال في نظرية المساءلة لمايير**: اللغة عند مايير هي إثارةٌ دائمةٌ للسّؤال وتعهّدٌ دائمٌ مع ما هو استشكالي، فالناس يتواصلون بروابط المشاكل التي يعايشونها، والأسئلة التي يُلابسونها طرحًا وتلقّيًا، انطلاقا من أنّ (اللوجوس) مكوّنٌ من ثنائية (الأسئلة / الأجوبة)؛ وذلك أنّ «استعمال اللغة يعني إثارة الانتباه حول سؤال مفترض، قد نكون متفقين حول مضمونه أو قد لا نكون، لكنه يشكل نقطة انطلاق التواصل بين الناس».

وعليه تصبح رؤية ميشال مايير إلى العالم بما يحويه من أدب وعلم وأخلاق وبلاغة تمرّ حتمًا بالوحدة الأساسية للغة؛ وهي ثنائية السؤال والجواب، على أساس أنّ التفكير البشري – عموما – محكومٌ بالاستشكال والبحث الدائم عن الحقائق المتوارية بوساطة السؤال الذي تُنمّيه الإجابات ولا تنهيه، واهتمام ميشيل مايير باللغة « وإن اندرج في إطار المساءلة الفلسفية الشاملة فإنّه لا يفقد مع ذلك نجاعته الإجرائية، ذلك أنّ هذه الجهود التنظيرية في مجال البلاغة تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشدّ الارتباط، ولدراسة السؤال المنفتح على الأجوبة المتعدّدة تتضافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب)، والتأويلية (علاقة السؤال والجواب)، والبلاغية (الحجاجية أساسا) ».

3. **البلاغة والحجاج في نظرية المساءلة**: انطلقت معارف ميشيل مايير البلاغية من تركةِ البلاغة الأرسطية وحاضر البلاغة الجديدة التي اشتهر بها شايم بيرلمان، إلاّ أنّه وجَّهَ هذه المعارف وجهةً استشكالية أو مساءلتية استنادا لنظريته التي أراد لها أن تكون مميّزةً عن غيرها من النظريات اللسانية والحجاجية الأخرى، فإذا كانت مقوّمات الفعل الخطابي لدى أرسطو مكوّنة من ثلاث ركائز:

أ. **الخطيب** (ETHOS) وما يشتمل عليه من أخلاق وخصال.

ب. **المتلقي** (PATHOS) وما يجب أن يُعلم من حالته النفسية ومشاعره القابلة للإثارة.

ج. **الخطبة** أو **القول** (LOGOS) وما يتصف به من آليات لغوية حاملة على التأثير.

فإنّ ميشال مايير يقترح ركائز أخرى غيرها تتمثل في: (الأخلاق – السؤال – الجواب)[1] ؛ بمعنى أنّه يلخّص (ETHOS) و(PATHOS) في ركيزة الأخلاق، أمّا (LOGOS) فهو ممثّل في المراوحة الازدواجية (السؤال / الجواب)، أو ما يُعرف عنده بالمساءلة أو الاستشكال.

وإذا كان شايم بيرلمان قد قامت فلسفته الحجاجية على مبدأ (الانخراط)؛ بمعنى أن يعمل الخطيب أو المتكلم على انخراط المخاطب معه في الرأي، أو انخراطه في العمل الذي يريده أن يقوم به، فإنّ ميشال مايير قد اشتغل على مبدأ (المفاوضة)، أي **مفاوضة المسافة**؛ بمعنى أنّه بين المتكلم والمخاطب مسافة اختلاف أو اتفاق، ففي مسافة الاختلاف يسعى المتكلّم إلى تقريب تلك المسافة بـ(LOGOS)، وفي مسافة الاتفاق يسعى المتكلم أحيانا إلى توسيع المسافة، وآلةُ تقريبِ المسافةِ وتوسيعِها السؤالُ؛ وذلك أنّ « طرح السؤال يمكن أن يضخّم الاختلاف حول الموضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلّم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطّف

السـؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلّم، وبإمكان المتكلّم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطب إذا ما كان مقرّا بما يطرحه عليه من أجوبة ».

وتندرج الصور البيانية (المجاز) عند مايير في صميم فلسفته المساءلتية أو الاستشكالية (البروبماتولوجية)، بل ويعدها ممثلا للفكر في جوهر حركته الاسـتفهامية؛ وبرهان ذلك مثال: (محمد أسـدٌ). فظاهر اللفظ في هذا المجاز اللغوي لا تشي بالحقيقة، ما يدفع بالخاطب إلى المساءلة: ما وجه الصلة بين المسند (أسد) والمسند إليه (محمد)؟ وجواب هذا السـؤال يكون عند مفسّـر هذا التماهي البلاغي بين الطرفين (الشـجاعة)، وهذا التماهي البلاغي هو يطلق عليه مايير بالفضاء الاستشكالي (الفضاء البروبماتولوجي).

ويتألف المجاز في نظام الفكر من ثلاثة مسـتويات: **مسـتوى** الإنسـان المراد وصـفه (محمد)، **ومسـتوى** الحيوان (الأسـد)، **والمسـتوى** المشـترك أو فضـاء التماهي البروبماتولوجي (الشـجاعة)، غير أنّ هذا المسـتوى الأخير يسـكت عنه في المسـتوى المنطوق أو البيان المكتوب ليصـنع التماهي البلاغي المطلوب بين (محمد) و(الأسد).

ويواصل مايير إسقاطاته الحجاجية على الصور البيانية من منظور الاستشكال والمساءلة، وهو يتفق مع شايم بيرلمان في النظرة الحجاجية للبلاغة عموما؛ وذلك أنّ الصور البيانية ما لم تؤدي وظيفة حجاجية خطابية إقناعية فهي لا تعدو أن تكون إلاّ زخرفة لفظية، والحجاج الخطابي لدى مايير يختلف عن غيره في كونه **مفاوضـة للمسـافة**؛ أي المسـافة بين المتخاطبين في مسـاءلةٍ ما اختلافا واتفاقا بعدًا وقربًا، حسـب رغبة الأشـخاص المستشفة من لغة المتخاطبين واستعمالاتهم للأساليب البلاغية المعروفة.